١٩٤٥ - ٢٠١٥ : سبعون عاماً في خدمة العربية

د. رنا الحكيم بكداش

أن نتحدّث عن الطرائق أو المواد التربوية للغة العربية يعني حتماً الحديث عن مركز الأبحاث والدراسات العربية الذي كان الحاضنة الرئيسية لكل المواد الخاصة باللغة العربية للناطقين بها أو بغيرها وذلك منذ تأسيسه عام ١٩٤٥. ولا شكّ أن كل هذه المواد التربوية قد شكّلت على مرّ السنين وقودَ كل دورات تعليم اللغة سواء المكثّفة منها أو غير المكثّفة. والمواد بحسب تدرّجها الزمني بدأت مع "طريقة الجمل" وتلتها طريقة "من الخليج إلى المحيط" فمواد "قفا نحك" "وشو هل حكي" الخاصة بالعامية وصولاً إلى "توابل وحرير" من دون أن ننسى مجموعة "كتيّبات منهجيات التعبير" التي تتألّف من اثني عشر عنواناً. الاّ أنه وبالرغم من وفرة هذه العناوين وبالرغم من انها كلها قطعت شوطاً طويلاً في مسار العملية التعليمية، إلاّ أن لكلّ منها مدة صلاحية محدّدة. من هنا يمكن القول أنَّ لكل عنوان من هذه المواد مدة خدمة محدّدة ولا بدّ بعد انقضاء فترة من الزمن من ضخ دم جديد في مسار التعليم حتى تواكب الطرائق متطلّبات العصر من جهة وحاجات المتعلّمين من جهة أخرى. من هنا أفسح كلُّ خَلَف المجال لسلفه، فانسحبت "طريقة الجمل" لتحلَّ محلَّها طريقة "من الخليج إلى المحيط" وكذلك فَعَلَتْ هذه الأخيرة إفساحاً لمواد "توابل وحرير". وإفساح المجال لا يعني إطلاقاً أن نقلب الطاولة على من سبق بل بالعكس تستوْحي كل مادة ممن سبقها وتُبقي على الجوهر. وهكذا كرت مسبحة التعديل لتشمل كافة المواد من "طريقة الجمل" وصولاً إلى مواد "توابل وحرير". والتحديث يحصل دوماً بما "تشتهي السفن" أي لضرورات محدَّدة سواء تعليمية او لمواكبة متطلّبات العصر التقنية. وبناءً عليه وانسجاماً مع متطلّبات الإطار الأوروبي(cadre européen) خضعت مواد "توابل وحرير" وقفا نحك" لإعادة تدوير أو رَسْكَلَة حتى تتناسب والإطار التعليمي الذي وضعته المجموعة الأوروبية. فتمّ حذف بعض التمارين وإعادة توزيع البعض الآخر وكأن المواد خضعت لعملية تشذيب بسيط من دون أن يُمسَّ بالجوهر. وهنا لا بدّ من التذكير إن مركز الأبحاث والدراسات العربية اعتمد على مقاربة اسمها التركيبية الإجمالية السمعية البصرية والمعروفة بالمختصر الفرنسي SGAV . وذلك على مدى أكثر من نصف قرن تقريباً.إلاّ أنه ورغبة منه في مجاراة المقاربات الجديدة، بدأ منذ عام ٢٠١٢ إعتماد مقاربة جديدة وهي الإطار الأوروبي (cadre européen) والذي بموجبه أعاد "رَسكلة" مواد تعليم العربية للناطقين بغيرها. ولكنْ وبالرغم من اختلاف التسميات ما بين تركيبية إجمالية سمعيّة بصريّة وبين الإطار الأوروبي، فإنّ ما يثير الأنتباه هو أن الأسس بقيت متشابهة : فالأهداف التربوية هي ذاتها وأسس التقييم هي ذاتها والمقاربات في الحالات التواصلية متشابهة أيضاً ويحدونا هذا الواقع إلى تذكّر المعادلة الإقتصادية العالميّة : "لا شيء يضيع، لا شيء يخلق بل كل شيء يتغير" "Rien ne se perd، rien ne se crée، tout se transforme"

وتنطبق هذه المعادلة على الطرائق التعليمية لأن لا ثابت في هذه الطرائق بل هي في تحرّك وديناميّة دائمين لتواكب العصر وتتلاءم مع متطلبات المتعلّمين الجديدة. لذلك، تعدّدت المواد في "مركز الأبحاث والدراسات العربية" وكان لكلّ مرحلة زمنية طريقة أو مواد تلبي حاجات المتعلّمين في ذلك الوقت وتقدّم الجديد في عملية التعلّم والتعليم. فتوزّعت المواد على أربع لتعليم العربية الفصحى للناطقين بغيرها وهي بحسب الترتيب الزمني :" دروس اللغة العربية" أولاً ثم طريقة "من الخليج إلى المحيط" تليها مواد "قفا نحك" وصولاً إلى مواد "توابل وحرير". كما تجدر الإشارة إلى مواد "شو هل حكي " وهي آخر العنقود وهي معنية بتدريس العربية المحكية للناطقين بغيرها.

"دروس اللغة العربية"

العرض :

مواد "دروس اللغة العربيّة وعُرِفت "بطريقة الجمل" باكورة المواد التعليميّة. أما غاية هذه المواد كما أوضحها المؤلف في المقدمة فهي مقاربة اللغة العربية مقاربة حيّة وتقديم هذه اللغة الغنيّة الشاسعة من خلال نماذج محددة إن في دروس القواعد أو في اختيار المفردات والتراكيب.

واختيرت النصوص من مواضيع عديدة بشكل يسمح للمتعلّم أن يتعرّف اللّغة ويتكسّب ما هو أساسيّ منها مما يخدمه في مراحل التعلّم الأولى. ويتألف الكتاب من سبعة عشر درساً تتوزّع على ثلاثة أقسام وتتدرّج تدرّجاً تصاعدياً من الأسهل إلى الأصعب. ويتألف القسم الأول وهو بعنوان " القراءة" من خمسة عشر درساً يُعرِّف الأحرف الأبجدية العربية من خلال لوائح مفردات تركز على جذر كل كلمة. ترافق المفردات لوائح بالكتابة اللفظية تسمح للمتعلّم بقراءة الحرف العربي بشكل صحيح. أما القسم الثاني فيقدّم الدروس الأساسيّة في قواعد اللّغة العربية من خلال الترجمة إلى الفرنسية فيُعرِّف بالإسم والفعل والحرف والجمل الإسمية والجمل الفعلية والمفاعيل... تقدم هذه الدروس من خلال نصوص فرنسية تستلّ منها أمثلة من القواعد. ويمكن للطالب ان يختبر معلوماته في آخر كل درس بتمارين شفهية وكتابية.

ويتألف القسم الثالث والأخير من نصوص عربية متعددّة المواضيع من نصوص دينيّة (قرآن، انجيل) وأدبية (ميخائيل نعيمة) و عامة (ميثاق جامعة الدول العربية...) وتشكل هذه النصوص ترسيخاً لما تعلّمَه الطالب في القسمين الأول والثاني.

يقابل كل نصّ عربيّ ترجمة فرنسية وتكون الترجمة على مستويين:

أولا ترجمة بالحرف للنصّ المصدر، ثم "ترجمة صحيحة". ترافق كل نصّ لوائح مفردات بالفرنسية ويتم التركيز على جذر هذه المفردات. وتستغلّ النصوص لترسيخ قواعد اللغة وحفظ المفردات إذ ترافق النصوص شروحات معمّقة باللغة والقواعد تفيد المتعلم. وينتهي الكتاب بالنصوص الهدف الفرنسية مع لوائح مفردات عربية والمقابل الفرنسي وهذ المفردات وردت سابقاً في النصوص واكتشفها المتعلّم.

ما لها وما عليها

لا شكّ أن هذه المواد شكّلت في زمانها نقطة مضيئة من بين الطرائق القليلة في تعليم العربية وقد لا نبالغ إذا قلنا أن الكتاب ما زال يُعتبر مرجعاً في ايامنا الحاضرة في تعليم العربية وأفضل دليل أن الطبعة الثامنة منه صدرت عام ٢٠٠٦ ! إلا اننا لا نهدف في هذا المقام إلى أن نُبجّل هذا الكتاب ولا أن نعظّم من شأنه بل نرغب في تسليط الضوء على الإشكالية التالية التي قد تضع هذا النوع من الطرائق تحت مجهر التدقيق.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو : هل تنجح الترجمة كوسيلة في تعليم العربية أو أي لغة جديدة وأين تكمن الحدود الفاصلة بين تعليم اللّغة الحيّة وتعليم الترجمة.

من الخليج إلى المحيط

العرض :

مواد تعليميّة لغير الناطقين باللغة العربية وُضِعت في منتصف السبعينات من القرن العشرين وقام بوضعها فريقٌ من المؤلفين بناءً على طلب ناشر السلسلة .

ويعود السبب في اختيار العنوان إلى رغبة المؤلفين في أن تكون اللغة العربية التي تدرَّس في هذه الطريقة هي اللغة الفصحى المعتمدة في الصحافة والإعلام والمناسبات الرسميّة والندوات... في معظم الدول العربية المنتشرة من الخليج إلى المحيط ؛ لذا اعتمد المؤلفون لغة وسطى أخذت عن الفصحى التراكيب والمفردات وأخذت عن العاميّة سهولة الإستعمال وانطلقوا من المبدأ أنّ اللغة العربية الفصحى قد تكون أداة التواصل الوحيدة بين العرب إذ تختلف العاميّات بإختلاف الدول بين المشرق والمغرب العربيتين أما الفصحى فمعتمدة في كل الدول العربية في المناسبات الرسمية والخطب ونشرات الأخبار فلمَ لا تكون لغة التخاطب اليومي والشفهي أيضاً كونها أداة التواصل الأولى في كل دول العالم العربي ؟.

وتتألف المواد من أربعة مستويات وتغطي حاجات المتعلمين من المستوى المبتدىء حتى المستوى المتقدّم. وتتوزّع المستويات على جزئين : الجزء الأول وهو الكتاب الأخضر ويتألف من